عائشة عصمت تيمور

(١٣) نثرها

(ب) « مرآة التأمل في الامور »

لقد شاع ان « باحثة البادية » أوّل مصريةٍ عالجت الموضوعات الاجتماعية . واني لأشترك بأن التيمورية كانت اوّل من فصل في مقالاتٍ مختلفة نُشرت في صحف زمانها ، وفي « مرآة التأمل في الامور » وهي رسالة وجيزة في ١٦ صفحة من القطع الكبير . ليس لهذه الرسالة من تاريخٍ يُوقتُها . إلاّ ان منشئتها ختمتها (على طريقة ذلك العصر الكتابية) بامتداح سمو الخديو السابق عبّاس حلمي باشا . فهي نُشرت والحالة هذه بعد توليته ، اي بعد ١٨٩٢ ، وفي السنوات العشر الاخيرة من حياة التيمورية

لغة هذه الرسالة ككلّ ما نثرت عائشة ، هي لغة المقامات ذات السجع والتطويل وهي تستهلّها بالشكوى وتفكّر « لعلي ارى لسماء الصفو هلالاً ولعقد الازمة انحلالاً . . »

ويظهر انها عثرت على « انحلال لعقد الازمة » أو ما يشبههُ ، لأنها « فاذا في زعيم الجسارة علي إلى مقصورة السلامة ، ولا تحذري الانتقاد والملامة ، وعليك بايضاح الدعوى . . . »

وهنا قامت و« زعيم الجسارة » المشار اليهِ ، ولعلّهُ صديق خيالي — بمخاطبٍ حافلٍ بالتبجيل المسجّع شغل صفحتين اثنتين ، فوصلنا اخيراً في اوّل الصفحة الرابعة إلى « ايضاح الدعوى » . وما هي الاّ انقلاب الادوار بين الرجال والنساء ، وتسرّب النساء إلى داخل الاسرة . ومنشأ ذلك في تقديرها ان جماعةً من الشبّان « غرّهم الله بالغرور حتى انّ كلّ إنسانٍ همّ بالاقتران من وضيعٍ ورفيعٍ وخاملٍ ونبيهٍ كان كلٌّ يحيد عن الحلى والحلل والضياع والعقار ، لا عن النسب والتديّن والعفّة والوقار » . ذلك ليتمتع بما تمتلكهُ ربّات الجمال « ويريح افكارهُ من تلاتعاب ويستغني عن الجهد في الاكتساب ، ويسلّم الزمام للهوى » مكتفياً « بتلك الثروة المستعارة وما يدري بأنهُ واقع في حبائل الخسارة . فتحتاط به اقرانهُ » « ويقوم جيش المداهنين بين يديهِ . . . »

ويظلّ الزوج بين طورٍ وتيذير حتى ينفد من يدهِ الدينار والدرهم . وإذ يعود الى البيت تقابلهُ الزوجة بالنفور وينتقل النفوذ والسيطرة اليها لان الزوج عاجز الاّ عن

القصف والاسراف . « وحقُّ الزوجية لا يتمّ الاّ اذا كان كلُّ واحدٍ منهما يرعى الآخر فيما لهُ وعليهِ ، فعلى الزوج ان يقوم بكلّ حقوقها ومصالحها ، كما يجب عليها طاعتهُ والانقياد لامرهِ » . فاذا انقلب الرأس عقبًا فكيف تستقيم الامور وكيف « لا تلقى المرأة وشاح الحذر وترمي برقع الحياء ؟ »

أتكون الزوجةُ صابرةً كتومًا دفنًا للشماتة وحذرًا من ذيوع الفضيحة « فوقعت هذا الويل يحدث قلبها الحزين والوهان » ؟ الاّ انّ الكتمان لا يداوي علّة والتجلّد لا يشفي علّة ، بل تجدب في نفسها مادّةُ الحياة و « بدّلت القصور بالقبور » ! وإذن فالبشرى للزوج الذي لا يرثي ليتم الاطفال « بل يأخذ من الميراث ما لق وابقى ويجعلهُ صداقًا لمن يلقيها في أكُنّهِ الشقا »

أم تكون المرأة سليطة اللسان وتضيقُ حيلتها فتعمدُ الى اللوم والمشاجرة ؟ إذن تبدأ حياة في الجحيم ، إذ لا مقدرة للرجل على زجرها وإسكاتها ، فيهجر بيتهُ إلى الحوانيت والخانات « واذا اتى المنزل نام في الحال خوفًا من المرافعة في القيل والقال »

فكيف تصحّ النساء على ضياع شبابهنّ وتضارتهنّ واموالهنّ وآمالهنّ في الهناء والسعادة ؟ ان الحزن والاسى ليلهب قلوبهنّ ! فتمضي الواحدة منهنّ الى الجارات وتستجير من عذابها وكربها . فاذا هي وقعت على امرأةٍ فاضلةٍ هوّنت عليها الامر وحثت لحين استئناف الازمة الجديدة . اما ان هي ساقها سوءُ الطالع إلى تلك الدور التي تبدّل منها الصون والحصانة باسم الحرية العصرية ، فهناك تعويها من سفلت اخلاقها فتستسلم المرأة وتخرج عن جادّة الحشمة . فيغار الزوج ويقوم بالتهديد والوعيد ، ولكن كيف تعبأ به وبكرامته وهو لم يعرف لنفسهِ واجباتٍ ولم يقف في شرودهِ عند حدّ ؟

هذا منشأ الشقاء على ما بدا للتيمورية . لذلك ناشدت الرجال في آخر الرسالة ان يستمعوا لها ، ورجتهم « ان لا تنبذوا خطاب هذه الضعيفة ولا تتيهوه بأقوال النساء السخيفة »

وقد لبّى الرجالُ هذه الدعوة بداهةً او اختياراً . فالنقدُ الاجتماعي الذي سيعالجهُ قاسم امين بفلسفةٍ وحصافةٍ سبقتهُ التيمورية بهذه الدعوة الى الاصلاح . لان الكتاب الذي وضعهُ قاسم بالفرنساوية ردّا على الدوق داركور صدر سنة ٩٤ ، وعقليتهُ لم تنفتق فيهِ عن تلك الثورة النبيلة الكامنة . ولم يصدر كتاب « تحرير المرأة » الذي بسط فيهِ نظرياته الجريئة إلاّ بعد اربعة او خمسة اعوام ، وعقّب عليهِ بكتاب «المرأة الجديدة» الذي صدر سنة ١٩٠٠

(ج) لا تصلح العائلات الاَّ بتربية البنات

يقول ابن اخي الشاعرة، محمود بك تيمور، ان التيمورية نشرت مقالات في جريدة «المؤيد». وأرجح ان خير تلك المقالات أدرجتها زينب فواز في كتابها «الدرّ المنثور» وقالت انها اقتبستها عن جريدة «الآداب» الصادرة يوم السبت الموافق ٩ جمادى الثانية سنة ١٣٠٦ هجرية، اي سنة ١٨٨٨ ميلاديَّة وقبل ان يكتب قاسم أمين في هذا الموضوع باثني عشرة سنة تقريباً

أرجّح ان هذه خير مقالاتها لأنَّ عائشة كانت وزينب فوّاز على اتصالٍ وائتلاف، وقد ترجمت زينب لعائشة في حياتها واستقت منها مصادر تلك الترجمة، بما فيها تراسلها ووردة اليازجي نظماً ونثراً. كما انها صدّرت كتاب «الدرّ المنثور» بخطاب من عائشة كلّهُ ثناء وتقريظ على طريقة ذلك العصر. وحيث انها ادرجت هذا المقال دون سواهُ فأكبر الظنّ انها فعلت باشارة التيمورية، او انها فضّلتهُ على غيره نسبة لما فيهِ

وإنهُ لأثرٌ نفيس حقّاً، لانهُ بكرٌ في لمس موضوع خطير. وخير ما تنتهي اليهِ الآن مباحثنا ليس باصدق نظراً، ولا هو باصوب حكماً، مما جاءت بهِ عائشة منذ ٣٧ عاماً

عنوان هذا المقال هو «لا تصلح العائلات الاَّ بتربية البنات». وكما انها في «مرآة التأمّل في الامور» تجعل منشأ الشقاء في بحث الرجل عن الثروة ليسيء التصرّف بها ويهدم بيتهُ بيدهِ، فهي هذا المقال تلوم المرأة على مبالغتها في الزينة دون الانتباه الى واجباتها، وترى في ذلك مبعث الخلل والفساد، وتعجبُ «من مدنيّةٍ تشغف بتزيين فتياتها بحلي مستعار، وتستعين على إظهار جمالهنّ بزخرف المعادن والاحجار، وتتخيّل انها زادتهنّ بسطةً في الحسن والدلال. والحال انها ألقت تلك الاحداث في اخدود الوبال، لانهُ لم يعد عليهنّ من تلك المستعارات الاَّ العجب والغرور المؤدي بهنّ الى ساحات المباهاة والفجور. وذلك لكفّ بصيرتهنّ عن الادراك وعدم علمهنّ بنتائج الاحوال وعواقب الامور»

قلّ ما ناقشتُ آراء عائشة في هذا الدرس لشعرها ونثرها، وإنما قصرتُ على ابراز أوجه خواطرها. ولولا ذلك لاتّسع المجال للاسهاب في ما يشقي العائلات ويسعدها ولتوافرت المادة فيما يتعلّق بتربية المرأة وما ينطوي تحتها من الحقائق والفروض. ولكن عطفتُ أحياناً على نظرية انها فلتعذّر السكوت على ما يشملهُ ذلك من إبهام وتأويل

وموضوع زينة المرأة قد يشغل كتاباً او كتباً لمن يريد ان يتناوله من وجهه المهم دون الاكتفاء بالارشاد ، أو بالتهكم ، أو بالنقد الجارح . لذلك التي هنا بكلمة فقط

اعتقد ان من طبيعة وجود المرأة أن تكون جميلة ، كما ان من طبيعة وجود النوع الانساني ان يكون ذكياً نشيطاً . وكما يصقل الرجل ذكاءه بالمعرفة والتجربة والاطلاع كذلك تصقل المرأة جمالها بالزينة والاناقة والكياسة . الفتاة معدة لتكون ربة منزل ، وام عائلة ، وسيدة مجلس زائرة ومزورة ، لا لتنزوي في حياة الزهد والرهبانية . فيجب أن تُنشأ على ما هيئت له من إبهاج المنازل وتزيين المجتمعات ، وبث اللطف والانس في كل نادٍ تحل فيه . ولما كان عليها ان ترضي برخامة صوتها ، وحلاوة ابتسامتها ، وظرف حديثها كذلك عليها ان تروق النظر بحسن هندامها . فالعيب إذن ليس في ميل المرأة (والرجل كذلك !) الى الزينة ، ولكن في المغالاة بارضاء ذلك الميل ، وعدم الخضوع لقواعد الذوق السليم في التصرف بمظاهرها . والغلو عيب في كل امر كما ان سقم الذوق نكبة دائمة

والتوفيق بين تنظيم الزينة والاقتصاد فيها يجب ان تتعودها الفتاة منذ الصغر . بعكس ما نجري عليه اكثر المدارس ان لم نقل كلها ، في تجريد البنات من كل وحلية ، وافهامهن ان الزينة جائرة بعد الخروج من المدرسة . فيظن حريتهن من هذه الناحية متأخرات ، كن يستأنف تربية نفسه على غير الوجه الذي ألفه سابقاً . ومن هنا عدم التوازن ، وعدم وضع الشيء في مكانه ، والاغراق في اسراف الوقت والدرهم ، والغلو في تقدير اهمية الزينة ، والتظاهر الذي تحبه اكثر النساء من انهن لا يتجملن على الاطلاق . والواقع ان اكثرهن تنصلاً اوفرهن تجملاً — الا اذا كن من اللاتي يأبى التجمل ان يتوافق « وطرازهن » وشكلهن الطبيعي

ولو شبت جميع البنات على اعتبار الزينة المعقولة النبهة جزءاً من ترتيب هندامهن على ما يناسب شكلهن وقالبهن بحكم الذوق والزي الجاري ، لما اتفقن في سبيل ذلك وقتاً ولا كان ذلك لهن تكلفاً وعملاً مستثنى بل لاندمج في عاداتهن وصار طبيعياً . وإذن لما رأينا المرأة في كثير من الاسر الشرقية بأثواب رثة قذرة بين زوجها واولادها بلا لياقة ولا كرامة . حتى اذا خرجت للزيارة ارتدت افخر الاثواب وازدانت بأنفس الحلي فبدت في كل اولئك غريبة بطيئة الحركات ، مرتبكة الكنات ، وكل جارحة فيها تنطق بانها « مطقمة بزي الآحاد والاعياد » على نحو ما يقول الفرنسيون

لو شبَّت المرأة على الزينة المعقولة لأدركت ان هذه الزينة لنفسها لا للناس، ولامتدت عنايتها تلك الى منزلها فلا تقصر ترتيبهُ على يوم الزيارة وتبقيهِ في الايام الاخرى على اسوأ ما يعهد من التشويش والارتباك. ولامتدت تلك الاناقة الى افكارها، والى آرائها، والى نظرتها في الحياة، والى ميولها الاخلاقية. فالمزيَّة الواحدة تستطيع ان تكون ذات تأثير على نواحٍ شتى من الاعمال كما ان العيب الواحد قد يهدم حياةً باسرها. ومواعظ المرشدين لم تجد نفعاً على طول الاجيال، لان حبَّ الجمال اعرق في الانسان وأحيا من تطيُّرهم وإرهابهم. وليتهم يستبدلوهُ بالارشاد إلى الوسائل المرضية من الزينة الواجبة

طويلة حاشيتي هذه بعد كلام التيمورية، ولكنها غير دخيلة ولا تافهة. فمن حقّ الجيل ان يطمع في المزيد، ومن حق غير الجيل ان يقلِّل من دمامتهِ و يسترها، ويحاول اظهارها بالمظهر غير المستنكر

ورغم إنكار الغلوّ في الزينة الفارغة، فان التيمورية ترى ان اعنف العتب يقع على الرجل — و باحثة البادية ستقول هذا القول فيما بعد — لانهُ القويّ وفي وسعهِ النهوض بالمرأة بها الى حيث تسع مدارکها فتشاركهُ. فاذا بها تنادي

«فيا رجال اوطاننا! لم تركتموهنَّ سدًى؟» «وهنَّ بين اناملكم اطوع من قلم؟» «فعلام ترفعون اكفَّ الحيرة عند الحاجة كالضالّ المعنّى، وقد سخرتم بامرهنَّ وازدريتم باشتراكهنَّ معكم في الاعمال واستحمستم انفرادكم في كلّ معنى؟ فانظروا عائد اللوم على من يعود»

منذ خمس وثلاثين سنة طلبت عائشة اشتراك المرأة مع الرجل في الاعمال، ولم هذا الاشتراك؟ لانهُ طبيعيٌّ «من حكم باري النسمات وموجد المخلوقات» ولأنهُ الاساس الاصلي «لصيرورة مدار عمران هذا العالم على الزوجين. ولو امكن الانفراد لخصَّ عالم الاسرار احدهما دون الآخر، وهو الافضل، ولم ينتهِ الى ما هو دونهُ. فكان التأمُّل في هيولى هذا الكون موجباً على الهيئة الرجولية العناية بتعليم المرأة وتهذيبها ليتالوا بذلك ارفع مجدٍ وأهنأ جدّ، ولتتقاض النسيات عن قلق الجهل براحة العرفان». أي ليقمن بواجبات التدبير في منازلهنَّ ومحيطهن، و يأتين بالمطلوب من عطفٍ ووفايةٍ وحكمةٍ نحو نفوسهنَّ وذويهنَّ دون شعوذةٍ ولا شرود عن الصواب

انها تقول بلغتها بالمساواة بين الرجل والمرأة، تقول بذلك لفظاً لا تلميحاً: «إذ لو

أمكن الانفراد للرجل بخصائص الوجود دون المرأة . فهما ضروريان كل منهما للآخر ، موجودان معاً تحت شمس واحدة واحكام واحدة يأتي كل بقسطه من واجبات متعادلة»

لقد قالت هذا في الشرق ، ورأت ان يتساوى الرجل والمرأة وان يشاركا في الاعمال ، وهي محجوبة رهن جدران الخدر . . ومتى ؟ في حين هذا كان يعدُّ بدعةً في اوربا . إذ لا يفوتني ان لفظة « ذكر » لم يُتَّفق على حذفها من قوانين انجلترا والاستعاضة عنها بلفظة « رجل » او « احد » ، الا منذ سنة ١٨٥٠ ، وكان ذلك عنوان تحرير المرأة عندهم وإدخالها في طائفة بني الانسان !

***

التربية تنطوي على فروض كثيرة وتحتمل إيضاحات وتأويلات شتَّى . وعليها تحت قلم عائشة مزيد من الابهام والمرونة . اولاً انها يطلب في معناها بقولها « تأديب البنات وتهذيب العائلات » وجوب تنشئة الفتاة لتكون اهلاً للسهر على مصلحة الاسرة والقيام بالمطلوب في سبيل تقدُّمها وراحتها وهنائها . لانَّ في حجرها تشبُّ الأجيال ومن كان مهيَّئاً لاعداد العظماء والنبلاء والصلَّاح وجب ان يكون على عظمة ونبل وصلاح

والمساواة ؟ هي معنىً عارض في كلام عائشة ، رغم اهميته بالنسبة للوقت الذي اورد فيه . اما اليوم فقد شاعت هذه الكلمة وشاع معناها لدى من يفهمهُ ومن يدَّعي انهُ يفهمهُ جيداً . ولكنَّ اكثرية الرجال ، حتى المتعلم والراقي منهم ، تكهربهم هذه الكلمة وتثير سخطهم وتهكمهم ، ولا يقرون ما يقرُّونهُ منها إلاَّ بقائمة من شروط الحصر والتقييد

وأنا أرى في إنكار المساواة على المرأة ما هو تكريم لها ، أيَّاً كانت الصيغة واللهجة المعبَّر بها عن ذلك الانكار . انهُ لدليلٌ على انَّ الرجل يجهدهُ كفاح الحياة فلا يريدهُ للمرأة ، ويطمع في ادخارها للراحة والهناء والرخاء والمؤاساة . بل هو دليل على محبته التي تتلوَّن بشتَّى الالوان ، وعلى احترامه ولو مُسخ احياناً بشكل الاستخفاف . أذلك الانكار محض أنانية كما يزعمون ؟ وماذا لو كان ذلك ؟ ومتى كانت الحياة خاليةً من الانانية ؟ وما احبَّ انانية أحبابنا الينا ! أما الانانية الممقوتة من القريب والغريب على السواء فهي الانانية التي تتنخ على حسابنا ، ولا تجعل لنا في إحصائها مكاناً وقدراً . ومن هنا نشأ كلُّ ثورة وكلُّ فتنة وكلُّ ظلم

انَّ المرأة التي تنال عوضاً عن تأدية واجباتها عطفاً وحبَّاً ، لا تثور ولا تفكر

حتى ولو خسرتها المسؤولية . وانما هي المرأة المظلومة من ناحية العواطف التي تصيح وتلجّ. يطلبون منها ألف الف واجب ، و يقيّدونها بألف الف قيد ،ويرهقونها بألف الف وقر ، ومقابل ذلك ماذا ؟ مقابل ذلك لا رعاية احياناً ، ولا عطف ، ولا محبّة ، حتى ولا مجاملة . إذن لماذا تحتمل ، وفي سبيل أيّ غاية تحيا ؟ لقد سنّ لها هذا المجتمع ، دون الرجل به ، قانوناً حتى للعواطف . وركّز لها ضمن حدود العائلة مسرّات الحنان وهناء القلب . ولم تقدّر تلك القوانين ان ما فرضتهُ قد لا يتحقق ، في حين تُرغم المرأة على الواجبات الباهظة وتعذّبها لحاجة العيش ووخز الحاجة . وليست كلُّ اسرة تقوم بتلك الحاجة المحسوسة نحو افرادها . ولا كلُّ رجل زوجاً كان ، او أباً ، او اخاً ، ليعلم ويدرك ان الرجولة لا تقوم برأس العائلة وبالامر والنهي ، بل بتأدية واجبات يسهلها لهُ المجتمع و يجعلها على المرأة اعسر ما تكون

قيود واستدراكات وحدود في كلّ جهة من حياة المرأة . وعلى هذه الضعيفة ان تذعن لها جميعاً وان ترى فيها الفضل والبرّ والكمال،وان تأتي بما لا يخجل ان يهملهُ الرجل شرط ان تظلّ ضمن حدود الفضل والبرّ والكمال . وللرجل كل الحرية في الحلال والحرام في الممنوع والجائز ! أيمكن ان يسكت على هذا الجور قلبٌ يحسّ و ينبض ؟ إنهُ ليتأكلهُ الجوى ويكظم عذابهِ الى حين ، ولكن لا بدّ ان يتفجّر عن الامس يوماً .لاسيما إذا رأى ان لا منفعة لهُ من جهادهِ،وان خيوط حياتهِ تبلى عبثاً ليجني ثمرة تعبهِ من ليس لذلك أهلاً

واهاً ، أيها الرجال الفضلاء ، انتم الذين تسعدون النساء العائشات تحت رعايتكم ، لو علتم كلَّ ما يكنهُ النداء الى المساواة من نصال مغمدة في سويداء القلوب ، لو علتم ذلك لعملتم ليس على نقض معاني المساواة كما تفعلون أحياناً ، بل على تعديل القوانين الجائرة وجعلها صالحةً لجميع افراد المجتمع

لستُ لأبرّر المرأة . إنّ المرأة المهدّمة في المنزل والبيئة لأكبر نقمات الله ، والمرأة الشريرة شرٌّ من أخبث الشياطين. ولكن من ذا يحمي الابرياء منها ؟من ذا يحمي المرأة الشيطة الصالحة النافعة في مكنتها من خمول الخامل،و بطش المبطاش، وغرور المغرور ؟

ليس هناك غير الجواب الذي لا تحبّون سماعهُ ، ولكنهُ لا حلّ عن غير طريقهِ : فاما ما يزيد عن المساواة من الرجل المحبّ للمرأة المحبوبة ، واما المساواة عن طريق القانون من الرجل المنصف للمرأة الغريبة

« مي »